فتميثوا بنظمى وتقلبوها رأساً على عقب ، لا يصيبكم ما أصاب من قبلكم من المتمنتين المستكبرين ...

* * *

وبعد ... فهذا رأيى فى استثمار نهضة المرأة المصرية للخير العام أدلى به راجية أن أكون بذلك قد أرضيت الواجب والضمير ، وإن كنت قد عرضت نفسى للوم البعض من سيداتى المثقفات ممن يرين فى الحياة غير رأيى ، ولايفوتنى هنا أن أهمس فى آذان هؤلاء أنه خير للمرأة من حياة زوجية سعيدة يحفها البنون وترف عليها الهناءة من مجد عريض يكال هامتها ووسام نبيل تحمله . ذلك لأن المرأة خلقت للرجل والرجل خلق للعمل ، وأن مجد المرأة حداد ظاهر على إسعادها كما قالت مدام دى استال ، فلا تغامروا بالمرأة فى تجربة قد أدرك العالم المتمدين خطأها ولا تستثمروها فى غير ما خلقت له وإلا تكونوا كطالب الماء من الصخر ، أو مستنبت الزرع فى المهمه القفر

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب فى الماء جذوة نار !!

فخرية عزمى

صورة من المجتمع الجزائرى

إنى أرى فى المنام !

للأستاذ محمد سعيد الزاهرى

عضو جمعية العلماء الجزائريين

خرج من السوق خائباً مكتئباً ، ملامحه عليها غبرة ترهقها قترة ، تدل على ما يأكل نفسه من الهم القاتل ، والحزن العميق ، يحمل فى إحدى يديه « قفة » فارغة لاشىء فيها ، وفى الأخرى « سبحة » غليظة جداً ، وهو يقول بصوت واضح مسموع : « هذا ما يريد لى فلان ، وهذا ما يريد لى فلان ... » وذكر ناساً بأسمائهم من رجال الاصلاح الاسلامى فى الجزائر ، ومضى يردد ما يقول الى مسافة بعيدة من السوق

هو « شيخ » لاحدى الطرق الصوفية فى هذه البلاد . قد وَهَن العظم منه واشتعل الرأس شيبا . تراه فترى وجها كالحا مسنوناً ، ولحية قذرة صفراء كأن دخاناً كثيفاً لا يزال يتعهدها ويغشاها من حين الى حين . كان يمتهن طريقة صوفية ، فلما لم يجد فيها معاشا تحول عنها الى طريقة أخرى يعيش فيها حولة على أحبابها ومنتقيها ، فلا يدعُ وليمةً ولا جنازةً لأحدهم إلاّ هرول اليها متعرضا لما قد يكون فيها من صدقات أونفحات .

ولقد مرد على هذا الأسلوب من التكسب فأتقنه وتفنن فيه ، فهو يبث العيون والأرصاد يتنسمون له أخبار الأفراح والأتراح ، ويُرسل فى المدائن حاشرين يأتونه بالزوار والمريدين يرجون مغفرته ويلتمسون منه البركة والخير ! ويرتكب هؤلاء الدعاة الذين يدعون الناسَ اليه ضروباً من الترغيب والترهيب ، فينحلونه المناقب والصالحات ، والخوارق والمعجزات ! فيزعمون « أن من يطيع الشيخ فقد أطاع الله » وأن الرسول (ص) لا يفارق الشيخ طرفة عين ، وأنّ من اتّبع الشيخ لجزاؤهم عند ربهم جنات عدن يدخلونها ، وأنّ من خالفه مأواهم النار وبئس المصير

وقفوا ذات يوم على فا كهىّ وقالوا له : إن شيخنا يُقرئك السلام ويقول لك يا بُنى إنى أرى فى المنام كأنك تتخبط فى ضحضاح من النار وأنت تستغيث فلا تغاث حتى استغثتَ بى ، وذكرتنى باسمى فأخذتُ بيدك ، وانقذتك من الهلاك . وتعبير هذه الرؤيا هو أنكَ رجُل قد غرق فى ذنوبه وخطاياه ، ولا خلاص لك إلا بأيدينا ... ثم لا يزال هؤلاء بالرجل يُرَبّبُون اليه الشيخ ، ويحثون على زيارته ، حتى يقع فى الفخ ، ويزور الشيخ ويأخذ منه « الوسيلة » . وهنا يصير مريداً ممن يرزقون الشيخَ ، ويؤدّون اليه كلّ ما هو فى حاجة اليه من طعام وشراب ومن نقود ومتاع

ولقد مد الشيخ أحبولته مرة أخرى فاصطاد رجلا مخلصاً بسيطاً ، طيب القلب . يقال له « علاّل » ، وكان هذا عاملا مجداً يدر عليه عمله كسباً وفيراً ، وخيراً كثيراً . وكان سمحاً كريماً ، فكان يرزق الشيخ ويقوت عيال الشيخ ، ويجزل له العطايا والهبات . فلم يكن يشترى لنفسه شيئاً إلا اشترى مثله للشيخ ، ولا قضى لنفسه حاجة إلا قضى للشيخ حاجة مثلها ، فان اشترى لنفسه رطلا من اللبن أو العنب اشترى للشيخ من

ذلك رطلا أو رطلين اثنين ، أو فصل لنفسه عباءة فصل للشيخ عباءة أحسن منها وأغلى وهلم جرا

واتفق أن صاحباً لعلال قدم من الحج فأهدى إليه عمامة حجازية من الحرير الغالي ، فأهداها بدوره إلى شيخه ، وأن صاحباً له آخر قدم من فاس فأهدى اليه « جلابة » من القماش الرفيع الذي يلائم مرح الشباب ، ولا يصلح للشيخ الفاني ، وأراد الرجل أن يرتديها فتذكر الشيخ فاشترى له « جلابة » تناسب الشيخوخة ووقارها بقيمة تفوق قيمة « جلابته » الأولى ، وارتداها في يوم جمعة ، وما هي إلا أن رآها الشيخ عليه حتى أرسل إليه من يحثونه على أن يهديها إليه ، فانتزعها لفوره من على ظهره ووهبه إياها ، فأرسل الشيخ بالعمامة و « الجلابة » إلى السوق فباعهما ببعض ثمنهما ؛ وشهد « علال » صفقة البيع ، وظن أنهما سرقتا من الشيخ فسأل الدلال عنهما فأخبره بالواقع ، فكبر عليه أن تباع « هديته » وهو يسمع ويرى ، فاشتراها للمرة الثانية ، وجعل يحدث نفسه ويقول :

ترى أبلغ من هوان على الشيخ أن يبيع ما أهديه إليه ؟ وما هو مصير « هداياي » الأخرى ؟ أم بلغ من هوان الشيخ على نفسه أن يتاجر بما يهدى إليه الناس ؟ وعلى أية حال فأنا لا أرضى لنفسي هذا المصير . وأحس الشيخ أن الرجل قد بدا يتنكر له ويجفوه ، فخشي أن يفلت من يديه ، ويولي عنه مدبراً . فعزم في نفسه أمراً ، وعزم أن يلعب آخر دور في الرواية ، وكان يعلم أن عقيلة علال تملك حلياً ومصوغا ومبلغاً من المال ، فدبر للاستيلاء على ذلك حيلة من عمل الشيطان ، فبلغ بها ما أراد . وذلك بأن أرسل إليها نساء ماكرات من اللائي قد أعددهن لمثل هذا الأمر ، فقلن لها : إن سيدنا يقرئك السلام ، ويقول لك يا بنيتي إني أرى في المنام أنك كنت مضطجعة نائمة ، فجاءت امرأة أخرى فاختطفت منك غطاءك الذي يغطيك وكان من الحرير الأبيض بياض الثلج ، فوثبت أنت من سريرك فزعة مذعورة تستغيثين وتعلنين الدنيا ولولة وصياحاً : «غطائي ! سترى ! غطائي ! سترى ! » فاجتمع عليك خلق كثير ، فكان اجتماعهم هذا ضغثاً على إبالة ، وزاد في مصابك ولوعتك أن أحداً منهم لم يتقدم لإغاثتك ، حتى جئت أنا وانتزعت من الغاصبة غطاءك ورددته عليك . ثم قلن لها إن تعبير هذه الرؤيا هو أن امرأة أخرى ستأخذ منك زوجك ولا يرده عليك سوى سيدنا ، وهو يستطيع أن يدفع عنك هذا البلاء سلفاً من الآن ، بشرط أن تدفعي إليه ثلاثة آلاف فرنك مقدماً . فرجعت السيدة إلى نفسها تبحث حياتها الزوجية فلم تعثر على أدنى شيء ينبئ بصدق هذه الرؤيا فلم تطاوعها نفسها أن تتهم زوجها ظلماً بغير حق أو أن تظن به الظنون ، وهي ما علمت عليه من سوء . فلم تكترث لهذه الرؤيا ، وقالت إنها أضغاث أحلام . ولكن الشيخ كان جاداً غير هازل ، فدس إلى فتاة من الفتيات اللائي ينتمين إليه من أوهمها أن الشيخ قد دعا الله لها أن يرزقها زوجاً كريماً ، وأن الله قد استجاب له فيها ، وقال : إني أرى في المنام أن فلانة قد زُفت إلى علال في احتفال رائع مهيب . وكانت هذه من الآنسات العانسات ، ففرحت وأعطت الشيخ من العطاء الجزيل ما أرضاه ، وجعلت منذ ذلك اليوم تعرض لعلال ، وتبدي له من زينتها تفتنه وتغريه حتى وقعت من نفسه ، ومال إليها ، وشرع الشيخ يمهد لها الطريق ، فدس إلى علال من يهدمون عليه أسرته الهانئة السعيدة ، ويملؤون سمعه بما يفرقون به بين المرء وزوجه . وما هي إلا أن وقع بين الزوجين خلاف بسيط حتى أخرج علال أم ولده من دارها وأطلق سراحها . وسرعان ما التف به أعوان الشيخ وأحكموا الصلة بينه وبين الفتاة العانسة ، وعقدوا له عليها من ليلته عقدة النكاح

وأتى على المطلقة حين من الدهر تجرعت فيه طعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً ، وذاقت من مصائب الدهر وأرزائه ما لا يعلمه إلا الله ، فلقد خسرت زوجها على حين غفلة ، وهي أشد ما تكون حباً له واطمئنانا اليه ، واخلاصاً له وحدباً عليه . وهي تتمنى أن ينتزع وحيدها من بين أحضانها ، وهي لا تطيق أن تتحطم سعادتها وهناءتها ليتم هناء عدوتها ؛ ولقد فكرت في الانتحار ، وهمت به مراراً لولا إبقاؤها على وحيدها ، ولكنها التجأت أخيراً إلى الشيخ مذعنة طائعة ، قد أسلمت له وجهها ، وفوضت اليه أمرها ، ترجوه أن يعيد اليها زوجها ، وله بعد ذلك ما يشاء ويختار ، فرفع القيمة هذه المرة ، وجعلها عشرة آلاف فرنك تدفعها اليه نقداً . وبعد تَوَسُّلات ومساومات

رضىَ فتسلمَ منها خمسة آلاف نقدته إياها ، وباعت فيها بعض ماتملك من حلى ومصوغ . وقعدت فى دارها تنتظر النتيجة على أحر من الجمر

وطفق الشيخ يتودد إلى « علال » ويلاطفه حتى نسى الماضى القديم ، وأحلّه من نفسه محلّ الثقة والرضى . وما استيقن الشيخُ ذلك من الرجل حتى قال له ذات يوم — وهما على انفراد — : يا بنىّ إنى أرى فى المنام أنك لستَ بخير فى أملاك هذه التى لم تتمتع بكونها قضتْ زهرة أيامها عانسةً بائرة ، فقد حادت عن طريق الشرف والاستقامة من غير أن تحفظ لك غيباً أو تعترف لك بجميل . وأنا كما تعلم إذا رأيتُ الرؤيا جاءت كفلَق الصبح . وكان الشيخ قد أوعز إلى بعض أعوانه فأخبروا علالا بأن عِرْضه أصبح مضغة فى الأفواه ، تلوكه ألسنةُ السوء ، وأن النساء فى الحمامات وفى الولائم والمناحات يتلقّنَ أهله بألسنة حداد . فما كذب الرجل فيما سمع ، وأسرع إلى « خيْرةَ » يَفكّ عصمتها وأعلنها بطلاقها ، وهى ما تزال بعدُ عروساً فى خدرها ، ولم ينصل خضابها . وغدا عليه الشيخ فى وجوه من أعوانه وشركائه «يتوسل اليه» أن يراجع زوجته الأولى ، ويقول له : يابنى إنى أرى فى المنام أن جبريل عليه السلام قد زوّجكما من فوق السموات العلى ، فأذعن الرجل ، ولم يكد ينقضى يومه ذاك حتى كانت قد جُليتْ عليه مرة أخرى

لقد اطمأنت « خيرةُ » إلى الأيام ، وحسبت أن زواجها هذا قد جعل حداً لوحدتها وشقائها ، وظنت أنها بهذا الزواج مقبلة على حياة منزلية هانئة سعيدة لا حُزْنَ فيها ولا عناء فاذا بها تتلقى هذه الصدمة العنيفة القاسية الأليمة التى لا رحمة فيها ، فتملأ نفسها حيرة واضطرابا ، وتملؤها ظلمة ويأساً ، فلم تطق الصبر ولا الاحتمال ، فتحنق وتثور انتقاماً لنفسها ، فاذا هى تنتقم من نفسها ، وقد ضلت السبيل ، واندفعت فى الغى وسقطت فى الهوة التى لا قرار لها

وأراد الشيخ أن يحج إلى بيت الله الحرام لا إيماناً واحتساباً لأنه ممن يزعمون أن زيارة الضريح الفلانى تعدل عند الله ثواب حجة وعمرة معاً ؛ ولكنه يريد التكسب والارتزاق ، فطاف على الناس يستعينهم على الحج ، فيزعم لهذا أنه سيدعو له الله تعالى عند البيت الحرام ، ويزعم للآخر أنه سيستغفر له عند مقام ابراهيم ، ويتناول على ذلك أجره سلفاً . أما الذين يستلمُ منهم سلفا أثمان « الأردية » و « العمائم » و « السبحات » وما إلى ذلك مما سيحمله لهم معه من الحجاز فهم كثيرون جداً ، لا يكاد يأخذهم إحصاء . وانتهى به المطاف إلى ضحيته « خيرة » فدخل عليها وهى فى منزلها ، وقد أثْرَتْ من حياتها الجديدة الماجنة وأصبحت ذات مال تخجلت لمرآه وأدركها الحياء ، غير أنه أخذ يزين لها ما هى فيه ، ويزعم لها أن الله قد غفر لها جميع ما اكتسبت من الخطيئة والأثم . وقال لها : يا بنيتى إنى أرى فى المنام أن سيد الوجود (ص) يقول لكِ : طوفى بالبيت العتيق وزورى قبرى تخرجى من ذنوبك كيوم ولدتْكِ أمك ، فان لم تستطيعى إلى الحج سبيلاً ، فليحُجّ عنك هذا الرجل الصالح (يعنى الشيخ نفسه) . ولم يزل بها حتى آمنت له ، ودفعت إليه سائر النفقات ليحج عنها . فلما آب جاءها ببعض الهدايا مكتوباً عليها : « إلى الحاجة خيْرة » !

كان الناس فى بحبوحة من اليسْر والرخاء تملأ أيديهم الدراهم والدنانير فكان الشيخ فى نعيم وعيش رخيم ، يأتيه رزقه رغداً من كلّ مكان : هذا يعطيه رطلاً من اللحم ويجعله له راتبا يومياً ، وذاك يعطيه شيئاً من الخضر والفواكه ، ويجعله له عطاء غير مجذوذ ، وذلك يُهدى اليه قنطاراً من السميد ، ويجعلها له جراية شهرية وهكذا الخ الخ ، فكان إذا دخل السوق خرج منها و« قفته » ملآى ـ مجاناً ـ بكل ما هو فى حاجة اليه . فلما أعسر الناسُ ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم من شدة ما يعانون من ضنك وضيق نضبت موارد الشيخ ، وانقطعت عنه الرواتب والعطايا ، ولم يعد تملأ «قفته» بالمجان ، ولم يعد يلتمس لنفسه صدقة جارية عند أحد الباعة إلاّ وجدها قد بطلت . وقطعت الأزْمَة دابرَها ، فالأزمة إذن هى السبب الأول فى مُصاب هذا الشيخ ، وزملائه من الأشياخ ، فان كان لا بُدّ لهم أن يلوموا فليلوموا هذه الأزمة الخانقةَ ، وليلوموا بعدها هذه اليقْظة الشاملة التى شملت الدنيا كلها ، ثم يأتى بعد ذلك دَوْرُ هؤلاء المصلحين

(وهران) محمد السعيد الزاهرى